المجموعة التاريخية للصغار

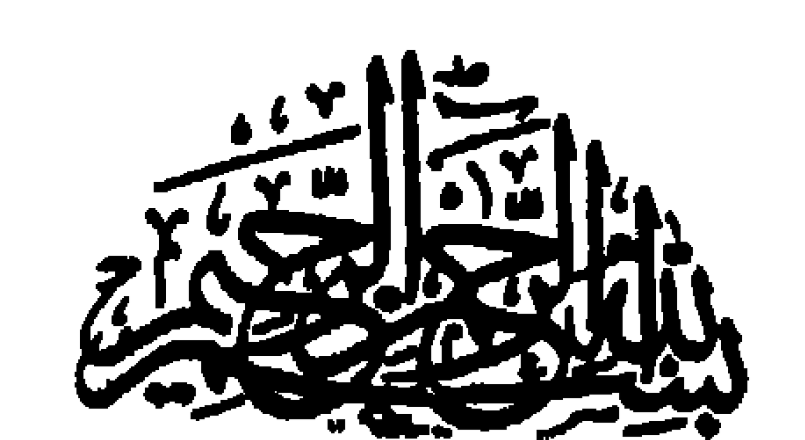
عجائب رحلة ابن بطوطة

المملوكُ دهْمانُ



إعداد
عبد القادر محمد مايو

مراجعة
أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي

الطبعة الأولى

مضبوطة ومشكولة

1423 هـ - 2003 م

<u>عنوان الدار :</u>

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي ص.ب : 78

هاتف 3 2213129 / 2269599 فاكس : 2212361 21 963+

email : qalamrab@scs-net.org

المَمْلُوكُ دَهْمَانُ

دَخَلَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ إِلَىٰ مَجْلِسِهِ فِي قَاعَةِ العَرْشِ فِي عَاصِمَتِهِ المَغْرِبِيَّةِ فَاسَ ، وَقَدْ رَسَمَ عَلَىٰ وَجْهِهِ مَلاَمِحَ مِنَ الجِدِّ وَالغَضَبِ وَالاسْتِيَاءِ مِمَّا لَمْ يَكُنْ فِي حُسْبَانِ كَاتِبِهِ ابْنِ جُزِّيٍّ . وَلَمَّا بَكَّرَ مُحَمَّدُ بْنُ جُزِّيٍّ إِلَىٰ المَجْلِسِ مِنْ دُونِ ابْنِ بَطُّوطَةَ ، أَلْقَىٰ عَلَىٰ سُلْطَانِهِ السَّلاَمَ بِالطَّرِيقَةِ المُعْتَادَةِ إِلاَّ أَنَّ السُّلْطَانَ لَمْ يَهُشَّ لَهُ وَاكْتَفَىٰ بِقَوْلِهِ :

ـ وَعَلَيْكَ السَّلاَمُ يَا بْنَ جُزِّيٍّ .

وَأَوْمَأَ لَهُ بِالجُلُوسِ فَجَلَسَ صَامِتاً وَمَعَهُ السِّجِلُّ وَعِدَّةُ الكِتَابَةِ مِنْ قَرَاطِيسَ وَأَقْلاَمٍ وَمَحَابِرَ ، وَجَعَلَ يَتَلَهَّىٰ بِقَطِّ رَأْسِ القَصَبِ الذِي جُعِلَ قَلَماً . وَتَمَنَّىٰ عَلَىٰ اللهِ أَنْ تَمُرَّ الأُمُورُ عَلَىٰ خَيْرٍ وَأَلاَّ يُبَادِرَهُ السُّلْطَانُ بِمَا يَسُوءُ وَكَانَ يَنْظُرُ إِلَىٰ بَابِ القَاعَةِ نَظَرَاتٍ مُتَرَدِّدَةً فِيهَا حِدَّةٌ وَاضْطِرَابٌ .

حَتَّىٰ إِذَا لَحِظَ مِنْهُ السُّلْطَانُ ذَلِكَ جَهَرَ بِمَا فِي خَاطِرِهِ ، وَقَالَ لَهُ تَصْرِيحاً لاَ تَلْمِيحاً :

ـ عَسَاكَ لاَ تَنَامُ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ ابْنُ بَطُّوطَةَ . . فَأَحَبَّ ابْنُ جُزِّيٍّ أَنْ يَمِيلَ بِالمَوْقِفِ مِنَ الجِدِّ إِلَىٰ المُزَاحِ ، عَسَىٰ أَنْ يُخَفِّفَ مِنْ غَضَبِ السُّلْطَانِ الذِي يَمِيلُ أَحْيَاناً إِلَىٰ المُسْتَطْرَفِ مِنَ الحَدِيثِ ، وَالفُكَاهِيَ لِيُسَرِّيَ عَنْهُ هَمَّ السِّيَاسَةِ وَالرَّعَايَا . قَال ابْنُ جُزِّيٍّ الكَاتِبُ :

ـ سَامَحَ الله مَوْلاَيَ السُّلْطَانَ ، وَكَيْفَ يَنَامُ ابْنُ جُزِّيٍّ إِذَا لَمْ يَبْدَأْ ابْنُ بَطُّوطَةَ حَدِيثَهُ الطَّوِيلَ ؟ !

ـ قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ إِذَنْ أَنْتَ تَعْتَرِفُ بِذَنْبِكَ . .

قَالَ الكَاتِبُ ابْنُ جُزِّيٍّ :

ـ بَلْ هُوَ القَلَمُ المَلُولُ الذِي يَكْبُو وَيَغْفُو ، وَأَتَظَاهَرُ بِالكَبْوَةِ وَالإِغْفَاءِ مِثْلَهُ قَبْلَ أَنْ أُقَوِّمَ رَأْسَهُ المِعْوَجَّ وَأُدَبِّبُهُ بِبَرْيَةٍ لاَ تَرْحَمُ مِثْلَ هَذِهِ . .

وَشَرَعَ ابْنُ جُزِّيٍّ يَبْرِي يَرَاعَ القَصَبِ بِشَفْرَةٍ حَادَّةٍ وَيَقُولُ :

ـ لأَقْتُلَنَّ هَذَا اليَرَاعَ بَرْياً بِالسِّكِّينِ ، مَالَمْ يَتَشَفَّعْ بِهِ عِنْدِي مَوْلاَيَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ بِذَاتِ نَفْسِهِ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ أَمَّا القَلَمُ فَأَنَا شَفِيعُهُ لِكَثْرَةِ مَا خَطَّ عَلَىٰ القِرْطَاسِ مِنَ الأَخْبَارِ العَجِيبَةِ وَالوَقَائِعِ الغَرِيبَةِ . . أَمَّا أَنْتَ يَا بْنَ جُزِّيٍّ فَلَنْ يَشْفَعَ لَكَ عِنْدِي بَعْدَ غَفْوَتِكَ فِي مَجْلِسِي لَيْلَةَ أَمْسِ إِلاّ أَنْ تُعَدِّدَ لِي الأُمُورَ التِي أَحْصَاهَا الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ ، وَالتِي خَصَّ بِهَا دِمَشْقَ جَنَّةَ البُلْدَانِ فَإِنْ شِئْتَ هَاتِهَا مِنْ ذَاكِرَتِكَ الكَلِيلَةِ ، وَإِنْ شِئْتَ اسْتَخْرِجْهَا مِمَّا دَوَّنْتَهُ فِي سِجِلِّكَ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَنْتَقِصَ مِنْهَا وَاحِدَةً مِمَّا تَعِبَ ابْنُ بَطُّوطَةَ فِي رِوَايَتِهِ وَإِمْلاَئِهِ . .

قَالَ الكَاتِبُ ابْنُ جُزِّيٍّ :

ـ لَقَدْ كُنْتَ مَعِي عَادِلاً مُنْصِفاً ، عَلَىٰ مَا أَعْهَدُهُ وَيَعْهَدُهُ جَمِيعُ الرَّعِيَّةِ فِيكَ . . وَهَأَنَذَا أُعَدِّدُ جَمِيعَ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ بَطُّوطَةَ مِنْ مَآثِرِ دِمَشْقَ ، أَسْتَحْضِرُهُ مِنَ الذَّاكِرَةِ عَسَىٰ أَنْ تَكُونَ عَنِّي رَاضِياً ، وَعَنْ ذَنْبِي مُتَغَاضِياً . .

هُنَا اسْتَأْذَنَ عَلَىٰ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ مُنَادِمُهُ وَمُؤْنِسُهُ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ ، فَأَذِنَ لَهُ فَأَلْقَىٰ السَّلاَمَ ، وَاسْتَقَرَّ فِي مَجْلِسِهِ ، وَأَشَارَ إِلَيْهِ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ أَنْ يَلْبَثَ فِي مَكَانِهِ صَامِتاً وَيَسْتَمِعَ مَعَهُ إِلَىٰ مَا يَقُولُهُ ابْنُ جُزِّيٍّ .

قَالَ ابْنُ جُزِّيٍّ الكَاتِبُ :

ـ اسْمَعْ يَا مَوْلاَيَ السُّلْطَانَ :

أَوَّلُ مَا تَمْتَازُ بِهِ دِمَشْقُ المَحْرُوسَةُ أَنَّهَا أُنْشُودَةٌ لِلشُّعَرَاءِ المُتَرَنِّمِينَ بِمَحَاسِنِهَا .

وَثَانِي مَا تَفْخَرُ بِهِ عَلَىٰ غَيْرِهَا مِنَ البُلْدَانِ جَامِعُهَا الأُمَوِيُّ الكَبِيرُ الَّذِي تَوَلَّىٰ بِنَاءَهُ وَإِتْقَانَهُ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ الوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ .

وَثَالِثُهَا أَبْوَابُهَا الثَّمَانِيَةُ المُشْرَعَاتُ الَّتِي تَضُمُّ إِلَيْهَا عَدَداً مِنَ المَشَاهِدِ وَالمَزَارَاتِ .

وَرَابِعُهَا أَرْبَاضُهَا وَضَوَاحِيهَا الَّتِي تُزَيِّنُهَا مِنْ جَمِيعِ نَوَاحِيهَا ، وَأَكْبَرُ مَا فِيهَا الصَّالِحِيَّةُ وَهِيَ مَدِينَةٌ عَظِيمَةٌ فِي جِهَتِهَا الشَّمَالِيَّةِ .

وَخَامِسُهَا جَبَلُ قَاسَيُونَ وَفِي أَعْلاَهُ المَشَاهِدُ وَمَرَاقِي الأَنْبِيَاءِ الصَّالِحِينَ ، وَيَحِلُّ غَارُ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ وَمَغَارَةُ الجُوعِ ، وَحَدِّثْ عَنْهَا وَلاَ حَرَجَ عَمَّنْ دَخَلَ إِلَيْهَا وَمَا خَرَجَ . .

وَأَمَّا سَادِسُهَا فَهُوَ جُثُومُ الرَّبْوَةِ فِي آخِرِ الجَبَلِ ، تَرْتَدِي مِنَ المَنَاظِرِ أَبْهَىٰ الحُلَلِ ، فِيهَا لِلمِيَاهِ مَنَابِعُ ، وَلِلمُتَنَزِّهِينَ مَرَاتِعُ .

وَسَابِعُ المُدْهِشَاتِ الدِّمَشْقِيَّةِ نَهْرُ الأَفْرُعِ السُّبَاعِيَّةِ المَعْرُوفُ بِبَرَدَىٰ ، لأَنَّهُ عَلَىٰ الشَّامَ بَرْدٌ وَسَلاَمٌ ، وَفِي جِنَانِهِ غَنَّىٰ الحَمَامُ . .

وَثَامِنُ مَا يَذْكُرُهُ الدَّاخِلُ إِلَىٰ دِمَشْقَ وَالمُعَاوِدُ تَعَدُّدُ المَدَارِسِ وَالمَشَاهِدِ وَالمَسَاجِدِ ، وَمِنْهَا الخَوَانِقُ الصُّوفِيَّةُ تَسْتَضِيفُ كُلَّ ذِي نَفْسٍ تَقِيَّةٍ . .

أَمَّا تَاسِعُ الأُمُورِ المُتَمَيِّزَةِ فِي دِمَشْقَ فَهُوَ رَمَضَانُهَا شَهْرُ الصِّيَامِ تُقَامُ فِيهِ مَآدِبُ الكِرَامِ لِلكِرَامِ ، وَيَكُونُ جَمْعُ المُؤْمِنِينَ فِي تَآلُفٍ وَانْسِجَامٍ . وَعَلامَةُ الفَضْلِ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ بَطُّوطَةَ مِنْ تَعَرُّضِهِ لِلمَرَضِ وَالحُمَّىٰ وَاسْتِقْبَالِهِ فِي دَارِ المَالِكِيِّ السَّخَاوِيِّ حَيْثُ أَتَمَّ رَمَضَانَ إِلَىٰ العِيدِ وَشُفِيَ مِنْ

مَرَضِهِ بِالمَعُونَةِ ، وَخَرَجَ مَوْفُورَ المَؤُونَةِ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ لِكَاتِبِهِ ابْنِ جُزِّيٍّ :

ـ كَفَىٰ ، كَفَىٰ يَابْنَ جُزِّيٍّ ، فَلَقَدْ وَعَيْتَ مَا خَطَّتْ يَمِينُكَ ، فَلَسْتُ أَلُومُكَ وَلاَ أُدِينُكَ . .

أَبْدَىٰ الكَاتِبُ ابْنُ جُزِّيٍّ تَمَامَ ارْتِيَاحِهِ ، وَتَنَفَّسَ الصُّعَدَاءَ ، وَهُوَ يُرَدِّدُ الشُّكْرَ عَلَىٰ مَسَامِعِ مَوْلاَهُ السُّلْطَانِ وَبِذَلِكَ تَجَاوَزَ مِحْنَتَهُ بَعْدَ الامْتِحَانِ ، وَارْتَدَّ السُّلْطَانُ مُنْفَرِجَ الأَسَارِيرِ ، جَمَّ الامْتِنَانِ . وَمِنْ شِدَّةِ حِرْصِهِ عَلَىٰ تَلَقِّي الأَخْبَارِ وَالعَجَائِبِ ، مِنْ مُحَدِّثِهِ ابْنِ بَطُّوطَةَ الرَّحَّالَةُ المُوَاظِبِ ، لَمْ يَنْسَ مَا وَعَدَهُ بِهِ مَنْ عَاشَرَ أُمُورَ دِمَشْقَ التِي أَسْمَاهَا جَنَّةَ البُلْدَانِ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ الفَاسِيُّ مُخَاطِباً نَدِيمَهُ وَمُحَدِّثَهُ ابْنَ بَطُّوطَةَ :

ـ الآنَ ، الآنَ ، مَاذَا عِنْدَكَ عَنْ دِمَشْقَ جَنَّةِ البُلْدَانِ وَتُحْفَةِ الأَزْمَانِ ، وَقُرَّةِ عَيْنِ الإِنْسَانِ . .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ . . وَعَلَىٰ رَأْسِهِمْ مَوْلاَيَ السُّلْطَانُ . . فَارِسُ بْنُ عَلِيٍّ أَبُو

عِنَانٍ . . دَعْنِي أَقُلْ لِحَضْرَتِهِ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ . . وَاسْتَأْنَفَ ابْنُ بَطُّوطَةَ الحَدِيثَ مِنْ حَيْثُ انْتَهَىٰ فَقَالَ :

ـ لِعِلْمِكَ يَا مَوْلاَيَ ، إِنَّ صَلاَحَ الرَّعِيَّةِ لاَ يَكُونُ إِلاَّ بِصَلاَحِ الرَّاعِي ، وَقَدْ تَوَالَىٰ عَلَىٰ إِمَارَةِ دِمَشْقَ مُلُوكٌ صَالِحُونَ وَأُمَرَاءُ ، وَعَلَىٰ رَأْسِهِمُ الأَمِيرُ نُورُ الدِّينِ ، وَقَدْ تَأَصَّلَ فِي نُفُوسِ هَؤُلاءِ وَضَمَائِرِهِم بِدَفْعٍ مِنَ القَضَاءِ وَالأَئِمَّةِ الصَّالِحِينَ ، أَنَّ كُلاًّ مِنْهُمْ رَاعٍ ، وَأَنَّ كُلاًّ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَمِنْ ذَلِكَ حِرْصُهُمْ عَلَىٰ تَوْقِيفِ الأَوْقَافِ وَتَعْمِيرِ المَصَارِفِ فِي وُجُوهِ الحَلاَلِ ، وَالمُسَاعَدَةِ لِكُلِّ مَنْ يَحْتَاجُهَا فِي كُلِّ مَيْدَانٍ مِنْ مَيَادِينِ الحَيَاةِ .

وَهَذَا هُوَ عَاشِرُ الأُمُورِ مِمَّا عُرِفَتْ بِهِ دِمَشْقُ التِي تَفَرَّعَتْ عَنْهَا الأَوْقَافُ كَأَيْدِي الأُمِّ الحَنُونِ . فَالأَوْقَافُ بِدِمَشْقَ لاَ تُحْصَرُ أَنْوَاعُهَا وَمَصَارِفُهَا لِكَثْرَتِهَا : فَمِنْهَا أَوْقَافٌ عَلَىٰ العَاجِزِينَ عَنِ الحَجِّ ، يُعْطَىٰ لِمَنْ يَحُجُّ عَنِ الرَّجُلِ المُكَلَّفِ مِنْهُم كِفَايَتُهُ . وَمِنْهَا أَوْقَافٌ عَلَىٰ تَجْهِيزِ البَنَاتِ حَتَّىٰ يَصِلْنَ إِلَىٰ بُيُوتِ أَزْوَاجِهِنَّ ، بَعْدَ أَنْ يَثْبُتَ أَنْ لاَ قُدْرَةَ لأَهْلِهِنَّ عَلَىٰ تَجْهِيزِهِنَّ . وَمِنْهَا أَوْقَافٌ أُخْرَىٰ لِفِكَاكِ الأَسْرَىٰ وَافْتِدَاءِ مَنْ وَقَعَ مِنْهُم

فِي أَيْدِي عَدُوٍّ كَافِرٍ . وَمِنْهَا أَوْقَافٌ لأَبْنَاءِ السَّبِيلِ يُعْطَوْنَ مِنْهَا مَا يَأْكُلُونَ وَيَلْبِسُونَ وَيَتَزَوَّدُونَ لِبِلَادِهِمْ ، وَمِنْهَا أَوْقَافٌ عَلَىٰ تَعْدِيلِ الطَّرِيقِ وَتَسْوِيَتِهَا وَرَصْفِهَا ، لأَنَّ أَزِقَّةَ دِمَشْقَ ، لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا رَصِيفَانِ يَمُرُّ عَلَيْهِمَا المُتَرَجِّلُونَ فِي مَعْصَمٍ عَنِ الرُّكْبَانِ الذِينَ يَعْبُرُونَ الطَّرِيقَ بَيْنَ الرَّصِيفَيْنِ . وَمِنَ الأَوْقَافِ مَا خُصِّصَ لِلمَأْزُومِ بِدَارِهِ أَخْرَجَهُ مِنْهَا تَهَدُّمٌ أَوْ سَيْلٌ أَوْ حَرِيقٌ أَوْ خَرَابٌ ، وَمِنَ الأَوْقَافِ مَا لِسِوَىٰ ذَلِكَ مِنْ أَفْعَالِ الخَيْرِ ، حَتَّىٰ إِذَا عَمَّ الخَيْرُ القَاصِيَ وَالدَّانِيَ مِنَ الحَاكِمِ شَعَرَ القَوْمُ بِالمُسَاوَاةِ وَتَنَسَّمُوا رَائِحَةَ العَدْلِ فِي الجَنَّةِ دَارِ القَرَارِ ، فَزَادَ المُتَّقِي فِي تَقْوَاهُ أَمَلاً ، وَتَقَرَّبَ العَبْدُ إِلَىٰ مَوْلَاهُ عَمَلاً :

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ لابْنِ بَطُّوطَةَ :

ـ أَصَبْتَ بِالقَوْلِ مَا أَصَبْتَ ، فَهَلْ لَكَ أَنْ تُطْرِفَنَا بِحَادِثَةٍ عَجِيبَةٍ تَكُونُ بُرْهَاناً عَلَىٰ مَا ذَكَرْتَ وَأَطْنَبْتَ

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ مَرَرْتُ يَوْماً بِبَعْضِ أَزِقَّةِ دِمَشْقَ ، فَرَأَيْتُ بِهِ مَمْلُوكاً صَغِيراً قَدْ

سَقَطَتْ مِنْ يَدِهِ صَحْفَةٌ مِنَ الفَخَّارِ الصِّينِيِّ ، وَهُمْ يُسَمُّونَهَا الصَّحْنَ ، فَتَكَسَّرَتْ الصَّحْفَةُ فَتَنَغَّصَ المَمْلُوكُ وَبَكَىٰ وَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُهُمْ : اجْمَعْ شُقَفَهَا وَاحْمِلْهَا مَعَكَ لِصَاحِبِ الأَوْقَافِ المُخَصَّصَةِ لِلأَوَانِي ، وَلَنْ تَلْقَىٰ إِلاَّ خَيْراً . وَجَمَعَ المَمْلُوكُ الصَّغِيرُ شُقَفَ الصَّحْنِ وَذَهَبَ الرَّجُلُ مَعَهُ دَلِيلاً إِلَىٰ مَقْصِدِهِ ، وَمَشَيْتُ مَعْهُمَا لأَعْرِفَ مَا يَكُونُ . .

دَخَلَ الرَّجُلُ بِالمَمْلُوكِ وَمَعَهُمَا الشُّقَفُ إِلَىٰ مَوْضِعٍ بِجَانِبِ أَحَدِ الجَوَامِعِ وَلَمْ تَطُلْ غَيْبَتُهُمَا حَتَّىٰ خَرَجَ الغُلاَمُ المَمْلُوكُ بِثَمَنِ مَا يُمَاثِلُ صَحْنَهُ المَكْسُورُ . وَحِينَ سَأَلْتُ الرَّجُلَ الدَّلِيلَ فَاعِلَ الخَيْرِ وَالإِحْسَانِ عَمَّا جَرَىٰ . قَالَ لِي : إِنَّ سَيِّدَ الغُلاَمِ رَجُلٌ مُبَخَّلٌ شَدِيدُ الحِرْصِ ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : إِنَّ سَيِّدَهُ ذَاكَ لاَ بُدَّ أَنْ يَضْرِبَهُ عَلَىٰ كَسْرِ الصَّحْنِ أَوْيَنْهَرَهُ ، وَهَذَا مَا يَغُمُّ قَلْبَ الصَّغِيرِ وَيَكْسِرُ خَاطِرَهُ ، فَجِئْتُ بِهِ إِلَىٰ مُتَوَلِّي هَذَا النَّوْعِ مِنَ الوَقْفِ جَبْراً لِلقُلُوبِ وَ الخَوَاطِرِ .

مَضَىٰ الغُلاَمُ المَمْلُوكُ بِمَا حَصَلَ فِي يَدِهِ مِنَ الدَّرَاهِمِ مُسْرِعاً لَهِفاً فَنَادِيْتُهُ مُسْتَوْقِفاً إِيَّاهُ عَلَىٰ رَصِيفِ الزِّقَاقِ ، فَانْدَهَشَ لِنِدَائِي وَ لِلزِّيِّ

المَغْرِبِيِّ الذِي أَرْتَدِيهِ ، وَالْتفَتَ إِلَيَّ مُرْتَاباً فِي أَمْرِي ، وَكَادَ يُعْرِضُ عَنِّي وَلاَ يَسْتَجِيبُ لَوْلاَ أَنْ اعْتَرَضَ ذَهَابَهُ فِي وِجْهَةٍ أُخْرَىٰ مُرورُ دَابَّةٍ يَمْتَطِيهَا صَاحِبُهَا ، وَقُلْتُ لَهُ :

ـ مَهْلاً يَا صَغِيرِي . . عَرَفْتُ قِصَّتِكَ وَ الصَّحْنَ المَكْسُورَ ، وَلاَ بُدَّ لِي مِنَ الاسْتِهْدَاءِ إِلَىٰ دَارِ سَيِّدِكَ ، لأُوصِيهِ بِكَ خَيْراً عَسَىٰ أَلاَّ يَغْضَبَ مِنْكَ ، وَأَلاَّ يَسُوءَهُ تَأَخُرُّكَ عَنْهُ . .

قالَ الغُلاَمُ الصَّغِيرُ :

ـ أَشْكُرُكَ عَلَىٰ اهْتِمَامِكَ بِأَمْرِي ، وَمَا أَظُنُّنِي سَأَحْتَاجُ إِلَيْكَ إِذَا وَضَعْتُ الدَّرَاهِمَ فِي كَفّ سَيِّدِي . .

قُلْتُ لِلغُلاَمِ :

ـ سَأَدَعُكَ وَشَأْنَكَ أَنْتَ وَسَيِّدُكَ وَالدَّرَاهِمَ ، وَلَكِنْ قُلْ لِي مَا اسْمُكَ ؟

قَالَ الغُلاَمُ :

ـ اسْمِي دَهْمَانُ المَمْلُوكُ . .

قُلْتُ لَهُ :

ـ لَكَ أَنْ تَنْصَرِفَ الآنَ ، فَإِذَا اشْتَدَّ عَلَيْكَ سَيِّدُكَ بِالمَلاَمِ أَوْ الضَّرْبِ ، فَأَنَا شَفِيعُكَ المُقِيمُ بِجِوَارِ مَسْجِدِ الأَقْدَامِ . .

قَالَ الغُلاَمُ المَمْلُوكُ دَهْمَانُ :

ـ وَدَارُ سَيِّدِي مِنْهُ قَرِيبٌ .

قُلْتُ لِلغُلاَمِ وَمَا أَدْرِي لِمَاذَا تَوَسَّمْتُ فِيهِ خَيْراً ، أُوصِيهِ كَأَحَدِ أَبْنَائِي :

ـ عَلَيْكَ بِصِدْقِ الإِيمَانِ ، وَكُنْ مَعَ اللهِ وَلاَ تُبَالِ ، وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ . . الوَدَاعَ يَا دَهْمَانُ . . الوَدَاعَ يَا دَهْمَانُ . . افْتَرَقْنَا وَأَخَذْتُ طَرِيقِي نَحْوَ المَسْجِدِ وَهُوَ فِي جِهَةِ القِبْلَةِ مِنْ دِمَشْقَ ، عَلَىٰ قَارِعَةِ الطَّرِيقِ الكَبِيرِ المُتَّجِهِ إِلَىٰ الحِجَازِ الشَّرِيفِ . وَالبَيْتِ المُقَدَّسِ وَالدِّيَارِ المِصْرِيَّةِ اخْتَرْتُهُ مُعْتَكَفاً لِثَلاَثَةِ أَيَّامٍ بِلَيَالِيهَا ، وَهُوَ مَسْجِدٌ عَظِيمُ البَرَكَةِ . وَالأَقْدَامُ التِي سُمِّيَ بِاسْمِهَا بَاقِيَةٌ فِي حَجَرٍ هُنَاكَ ، وَيُقَالُ : إِنَّهَا أَثَرُ خُطُوَاتِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلاَمُ .

كَانَ مُقَامِي فِي دِمَشْقَ أَشْهُراً ، وَجَعَلْتُ عَلَيْهَا طَرِيقِي مِرَاراً ، سَمِعْتُ بِجَامِعِ بَنِي أُمَيَّةَ الحَدِيثَ النَّبَوِيَّ الشَّرِيفَ ، وَتَلَقَّيْتُ العِلْمَ فِي جَوَامِعَ أُخْرَىٰ عَلَىٰ أَيْدِي عَدَدٍ مِنْ شُيُوخِهَا مِنْ شَتَّىٰ المَذَاهِبِ . وَمِمَّنْ أَجَازَنِي مِنْ أَهْلِ دِمَشْقَ إِجَازَةً عَامَّةً الشَّيْخُ أَبُو العَبَّاسِ الحِجَازِيُّ ، وَقَبْلَهُ فِي السَّمَاعِ لِحَدِيثِ البُخَارِي شِهَابُ الدِّينِ أَحْمَدُ ، المَعْرُوفُ بِابْنِ الشِّحْنَةِ الحِجَازِيِّ ، وَهَكَذَا كَانَ مِنْ رِضَىٰ الله وَإِكْرَامِهِ لِعَبْدِهِ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ ، شَمْسِ الدِّينِ الطَّنْجِيِّ الذِي هُوَ ابْنُ بَطُّوطَةَ الذِي تَرَاهُ يَا مَوْلَايَ بَيْنَ يَدَيْكَ . .

وَأَخْتِمُ قِصَّتِي العَجِيبَةَ مَعَ المَمْلُوكِ دَهْمَانَ بِأَعْجَبِ لِقَاءٍ تَمَّ بَيْنَنَا بَعْدَ نَيِّفٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً إِذْ دَخَلْتُ دِمَشْقَ بَعْدَ تَشْرِيقٍ وَتَغْرِيبٍ فِي عَامِ الطَّاعُونِ ، وَكَانَ دُخُولِي إِلَيْهَا فِي أَوَاخِرِ رَبِيعٍ الثَّانِي مِنْ عَامِ تِسْعَةٍ وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ ، فِي عَهْدِ مَلِكِ الأُمَرَاءِ نَائِبِ السُّلْطَانِ أَرْغُونْ شَاهْ .

فِي يَوْمِهَا أَمَرَ نَائِبُ السُّلْطَانِ أَرْغُون شَاهْ مُنَادِياً يَطُوفُ فِي أَحْيَاءِ دِمَشْق

وَسُبُلِهَا وَأَزِقَّتِهَا وَيُنَادِي أَنْ يَصُومَ النَّاسُ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ مُتَوَالِيَاتٍ ، وَلاَ يَطْبُخُوا بِالسُّوقِ .

ثُمَّ اجْتَمَعَ الأُمَرَاءُ وَالشُّرَفَاءُ وَالقُضَاةُ وَالفُقَهَاءُ وَسَائِرُ الطَّبَقَاتِ عَلَىٰ اخْتِلاَفِهَا فِي الجَوَامِعِ حَتَّىٰ غَصَّ بِهِمْ كُلُّ مُصَلَّىٰ . وَبَاتُوا لَيْلَةَ الجُمُعَةِ بَيْنَ صَلاَةٍ وَقِيَامٍ وَقُعُودٍ وَسُجُودٍ وَدُعَاءٍ وَتَبَتُّلٍ ، ثُمَّ صَلُّوا الصُّبْحَ وَخَرَجُوا جَمِيعاً عَلَىٰ أَقْدَامِهِم وَبِأَيْدِيهِمُ المَصَاحِفُ ، وَالأُمَرَاءُ حُفَاةٌ ضَارِعُونَ وَشَارَكَهُمْ بِالخُرُوجِ النِّسَاءُ وَالوِلْدَانُ وَجَمِيعُهُمْ بَاكُونَ مُتَوَسِّلُونَ إِلَىٰ اللهِ بِجَاهِ كُتُبِهِ وَأَنْبِيَائِهِ ، وَقَصَدُوا مَسْجِدَ الأَقْدَامِ ، وَأَقَامُوا بِهِ فِي تَضَرُّعِهِمْ وَدُعَائِهِمْ إِلَىٰ قُرْبِ الزَّوَالِ . .

وَلَمَّا رُفِعَ أَذَانُ الظُّهْرِ لِصَلاَةِ الجُمُعَةِ أَوْمَأَ نَفَرٌ مِنَ النَّاسِ إِلَىٰ الإِمَامِ دَهْمَانَ الأَبْيَضِ فَالتَفَتُّ إِلَيْهِ ، وَلَمْ يَكُنْ إِلاَّ المَمْلُوكَ الصَّغِيرَ صَاحِبَ الصَّحْنِ المَكْسُورِ الذِي جُبِرَ خَاطِرُهُ ، وَأَتْبَعْتُهُ بِنَصِيحَتِي بِصِدْقِ الإِيمَانِ ، قَبْلَ عِشْرِينَ عَاماً أَوْ تَزِيدُ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ مُعْتَرِفاً بِالفَضْلِ لِصَاحِبِهِ :

ـ وَهَذِهِ أَيضاً مِنْ حَكَايَاتِكَ العَجِيبَةِ ، حِكَايَةُ (المَمْلُوكِ دَهْمَانَ) الذِي زَيَّنَهُ الله بِصِدْقِ الإِيمَانِ ، وَكَانَ لِغَيْرِهِ غُلَاماً فَغَدَا لِلمُؤْتَمِّينَ إِمَاماً ، وَالله صَاحِبُ الفَضْلِ العَظِيمِ .





☆